الشعور بالغربة والإحساس بالحنين إلى الوطن عند المقري.

الأستاذ قدور وهراني
- جامعة تيارت-

عاش المقري طول حياته متنقلا بين الأقطار مرتحلا بين الأوطان، حاملاً معه دائماً حبه لموطن الأجداد وحنينه لأرض الميلاد. وقد تجلى ذلك من خلال نصوص شعرية ونثرية مختلفة، تضمنتها مؤلفاته العديدة، فكان ذلك صراحة أحياناً و في ثنايا الكلام أحيانا أخرى؛ إذا كان حب المقري لتلمسان بهذه الدرجة فما هي دواعي خروجه منها؟ وما الأسباب التي دعته إلى تغيير مكان إقامته باستمرار والهجرة الدائمة؟ وهل وجد المقري في الأماكن التي استقر فيها مؤقتاً عوضا عن موطنه الأصلي؟ وما هي النصوص التي تدل على الشعور بالغربة والحنين إلى الوطن عند المقري؟ هل لاهتمام المقري بالأندلس علاقة بشعوره الغربة والحنين؟ وماذا يمثل لسان الدين بن الخطيب بالنسبة للمقَّري؟ هل فعلا عبَّر المَقَّري عن نفسه من خلال حديثه عن ذي الوزارتين ومأساته؟

ولد المَقَّـري (1) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمـد بن أحمد بمدينة تلمسان سنة 986هـ/ 1578م، في بيت عز وعلـم، فهو قرشي الأصل، قَـدِمَ جـده الخـامس إلى عاصـمة الزيـانيين بصحبة الشيخ أبي مدين، واستقر هناك فكان لـه ولعائلـه حـظ وافـر من الثروة والعلم، وقد اشتهر من بين أفراد هـذه العائلـة المَقَّري الجد وهـو أبـو عبـد الله محمـد شـيخ لـسان الـدين بـن الخطيب وعبد الرحمن بن خلدون وقاضي الجماعة بفـاس علـى عهد السلطان أبي عنان المريني، والعم وهو أبـو عثمـان سـعيد المقَّـري، شيخ صاحب الـنفح ومربيـه وعـالم تلمـسان ومفتيهـا ستين سنة(2)، و كما يقول الأستاذ محمد بن معمـر:» فهـو إذن ابن عائلة وابن مدينة»(3)، غير أن أبا العبـاس المقَّـري لم يتمتـع بثروة عائلته ومجدها المادي، فقد تراجع الحال ونقص المـال، إلى حد أن أبا عبد الله جد المقري قال: «فهأنـذا لم أدرك مـن ذلـك إلا أثر نعمة، اتخـذنا فـصوله عيـشا وأصـوله حرمـة»(4)، فقـد كانت عائلة المقري قد فقدت ثروتها قبل مولـده، ورغـم ذلـك كان كثير التباهي بهذه العائلة خاصة بجده أبـي عبـد الله حيـث أفرد له جزءًا مهما من كتابه نفح الطيب.

تميز عصر المقَّـري بكثـرة الاضـطرابات والفـتن وسـقوط دول وظهور أخرى، فقد فقدت تلمسان مكانتها بسبب ضـغط

الدول عليها، وهذا شأن مرحلة أفول الدول، وقد عبَّـر المقَّـري عن ذلك في معرض حديثه عن سبب مغادرته لتلمـسان قـائلاً: «إنه لما قضى الملك الذي ليس لعبيده في أحكامـه تعقـب أو رَدٌّ ولا محيد عما شاءه سـواء كـره ذلـك المـرء أو رد بـرحلتي مـن بلادي ونقلتي عن محل طارفي وتـلادي بقطـر المغـرب الأقـصى الذي تمت محاسنه لولا أن سماسرة الفـتن سـامت بـضائع أمنـه نقصا وطما به بحر الأهوال فاستعملت شعراء العيـث في كامـل رونقه من الزحاف إضماراً وقطعًا ووقصًا».(5)

فـالمقري هـو ابـن عائلـة فقـدت مجـدها المـادي، ومدينـة تراجعـت أهميتهـا الـسياسية، وتبـع ذلـك تراجـع في الحيـاة الحضارية بصفة عامة، هذه الصورة التي رسمها الواقع في ذهـن وذاكرة المقري لعائلته ومدينته كان لها كامل الأثر على نفـسيته، وكما يقال كلما زادت وطأة الحاضـر ومـشاكله، زاد الحـنين إلى الماضي، فالمقري لم ينسى وهو يعيش الغربة وفي أيامـه الأخـيرة في القاهرة أن يتحدث طويلاً عن مجـد عائلتـه ومدينتـه في نفـح الطيب، بل ذكر أنه كان قـد عـزم الكتابـة عـن مدينـة تلمـسان كتابا بعنوان «أنواء نيسان في أنباء تلمـسان» وكتـب بعـضه ثـم حالت بينه وبين ذلك العزم الأقـدار وارتحـل إلى حـضرة فـاس

فشغل بأمور الإمامة والفتوى والخطابة ونسي الأمر»(6)، ولابد أن تأليفه لكتاب عن الأندلس عوض تلمسان له ما يفسره على المستوى النفسي لشخصية المقري.

لقد كان للوضع الذي آلت إليه تلمسان كامل التأثير على الحياة العلمية فيها، فقد هجرها معظم علمائها مما أدى بأبي العباس إلى الهجرة متجها نحو فاس بناءً على نصيحة عمه وشيخه أبو عثمان سعيد المقَّري وذلك للأخذ عن علمائها. وقد كان لخروج المقري مضطرًا من تلمسان أثر كبير في نفسه، فقد غادرها في سن الشبيبة بعد أن ألِف العيش فيها وأمضى جزءاً مهما من أزهى فترات عمره بين شوارعها وبساتينها، إذا لم ينس وهو يُؤلف نفح الطيب أن يذكر هذه الحادثة بنوع من الأسى والحزن قائلا:» وبها ولدت أنا وأبي وجدي وجد جدي، وقرأت بها ونشأت إلى أن ارتحلت عنها في زمن الشبيبة إلى مدينة فاس سنة تسع وألف»(7)، ويُؤكد نفس الفكرة ما ذكره في مقدمته لكتاب أزهار الرياض في أخبار عياض قائلاً: «إنه لمَّا سبق القضاء وجرت الأقدار، بارتحالي عن الوطن المحبوب والقرار، بعد أن شممت عراره النجدي ولا أشجان ولا أكدار، في عشية لم يكن بعدها من عرار؛ ونزحت عن بلد –

به الوالد وما ولد – محل قطع التمائم، وفتح الكمائم، سقى الله عهاده صوب الغنائم:

بلـدٌ تحف بـه الرياض كأنـه وجـه جميـل والرياض عـذارهُ
وكأنما واديـه مـعصم غـادةٍ ومـن الجسور المحكمـات سواره(8)

ورغم أن المدة الزمنية بين تأليف المقري لأزهـار الريـاض ونفح الطيب طويلة فقد ألَّـف أزهار الريـاض بـين سـنتي 1013 و1027 هـ وانتهى من تأليف نفح الطيـب سـنة 1039هــ إلا أن كلا الكتـابين يتـضمنان أفكـارا وعبـارات متـشابهة فقـد دعـم مقدمتيهما بجمل وأبيات تحمل شحنة الحنين إلى الوطن، ومعنى ذلك أن شوقـه إلى بلده لم يفارقه طول مـدة إقامتـه في المهجـر، فهـو في فـاس كـان يحـن إلى تلمـسان وفي مـصر كـان يحـن إلى المغرب.

ومن بين العبارات التي حفلت بها مقدمة أزهـار الريـاض حديثه عن حاله عند مغادرته لبلاده: «...وكـان ذلـك وغـصن النشاط يانع، وبرد الشباب قشيب؛ وشمل الـنفس مجتمـع دون مانع، وكأس الأنس مزج بتسنيم القرب والشيب، وفود الرأس

غير خاضع و لا خـانع، إذ لم تطـرق سـاحته ولم تجـس خلالـه جيوش المشيب»(09).

وكان من بين ما يحرك عواطف المقري وهو بفـاس كتـب التي ترده من حين لآخر من تلمسان: فهـو يتحـدث عـن ذلـك بألم: «ولم تزل كتب الأقارب والإخوان ترد عليَّ، وتـثني عنـان أعنتها إلي، وتتكرر وتتعدد، وتنتاب وتتردد، وتتنـوع وتتجـدد، فأرتاح إليها إرتياح الغصن عند هزته، وأحن إليها، حـنين كُثَيِّـرٍ إلى معاهد عزته:

يا من يذكرني حديث أحبتي طاب الحديث بذكرهم ويطيب
أعد الحديث عليَّ من جنباته إن الحديـث عن الحبيب حبيب

وهو يتحدث صراحة عـن أثـر هـذه الرسـائل في تحريـك عواطفه: «وكثيراً ما يحرك ذلك مني كامن شوق، شبَّ عمره من الطوق، وأجد من لواعج الأورا ما وجده الفرزدق عنـد مباينـة النوار.(10)

كما يستهل حديثة عن الحنين على الوطن قائلاً: «ولـيس بمستنكر حنين الناب إلى عطنه، والمرء إلى محل نشأته ووطنه.

كم من منزل يألفـه الفتى وحنينـه أبداً لأول منزل(11)

وهو من بيت الغربة يبعث بتحية إلى تلمسان قائلاً:

حيا تلمسان الحيا فربوعها صدفٌ بجود بدره المكنـــــون
ماشئت من فضل عميـم إن سقى أروى وليـس بالممنـون
أو شئـت من دين إذا قدح الهدى أورى ودنيا لم تكن بالدون (12)

وإلى الجزائر تحية أخرى قائلاً:

بلـدُ الجزائر مـا أمر نواهـــا كلـف الفؤاد بحبها وهواهـا
يا عاذلي في حبها كـن عاذري يكفيك منها ماؤها وهواهـا (13)

وقد حفل نفح الطيب كذلك بما يدل علـى مـا يعـبر عـن الحنين إلى الوطن، فقد أورد عند الحـديث عـن تلمـسان أبيـات تأكد وجود هذا الشعور قائلاً على لسان ابن خفاجة:

ما جنة الخُلـد إلا في منازلكـــم وهذه كنت لو خيرت أختـار
لا تتقوا بعدها أن تدخلوا سقرًا فليس تدخـل بعد الجنة النـار (14)

و يتحدث عـن ذلـك في موضـع آخـر قـائلاً: محـل فـتح الكمائم ومسقط الرأس وقطع التمائم:

به كان الشباب اللدن غضا ودهري كله زمن الربيع
ففرق بيننا زمن خؤون لـه شغف بتفريق الجميـع(15)

لم أنس تلك النواسم التي أيامها للعمـر مواسـم وثغورهـا بالسرور بواسم فصرت أشير إليها وقد عزمت للرحيل القلـص الرواسم:

ولنا بهاتيك الديار مواسم كانت تقام لطيبها الأسواق
فأباننا عنها الزمان بسرعة وغدت تعللنا بها الأشواق(16)

وقد كان المقري حريصا على جمع ما قيل في جمال تلمسان من وصف عند مختلف الأدبـاء والمـؤرخين وهـي كمـا اسـتهل تعريفه لها «من أحسن مدائن الغرب ماءً وهـواءً، حـسبما قـال ابن مرزوق: «يكفيك منها ماؤها وهواؤها»... ويقـال تلمـسان وهو أيضا مركب من تلم ومعناه لها وشـان أي لهـا شـأن وهـي مدينة عريقة في التمدن لذيـذة الهـواء عذبـة المـاء كريمـة المنبـت اقتعدت بسفح جبل... عروسا فوق منصة والـشماريخ مـشرفة عليها إشراف التاج على الجبين ويطل منها علـى فحـص أفـيح معدٍ للفلاحة... وبها للملـك قـصور زاهـرات اشـتملت علـى المصانع الفائقة والصروح الشاهقة والبساتين الرائقة»(17).

ولما كان خروج المقري من بلاده اضطرارياً، بحث في فاس عن الراحة والهدوء مقتدياً بما كان لجده قبله من مكانة في المغرب الأقصى؛ وبالفعل دخلها زمن السلطان أبي المعالي زيدان السعدي سنة 1013هـ (18)، وفكان له ما تمنى من حضوة، فقد ولي الإمامة والخطابة في لجامع القرويين بفاس وكان يعتبر أهم معلم ديني وثقافي في المغرب الإسلامي كله، ثم ترقى بعد ذلك إلى درجة الإفتاء.

ويبدو أن المقري أحس بنوع من الاستقرار والراحة في بداية حياته بفاس حيث وصف ذلك بقوله:

بلد طاب لي به الأنس حينا

وصفا العود فيه والإبداء

فسقت عهده العهاد وروَّت

منه تلك النوادي الأنداء (19).

غير أن دوام الحال من المحال فقد تحول جو الهدوء إلى فتنة فلم يستطع المقري أن يبقى في المغرب الأقصى وقرر

الرحيل إلى المشرق، دون أن تأثر فيه الأبيات الثلاثة التي قيلت فيه بغرض صرفه عن عزمه:

أشمس الغرب حقاً ما سمعنا بأنك قد سئمت من الإقامة؟
وأنك قد عزمت على طلوع على سموت به علامه؟
لقد زلزلت منا كل قلب بحق الله لا تقم القيامه!(20)

ولا ريب أن المقري لم ترقه هذه الحياة المضطربة، وأنه اضطر على مغادرة المغرب اجتناباً لعواقب الفتن والدسائس المستمرة ومستفيدا من الخطأ الذي وقع فيه مثله الأعلى لسان الدين بن الخطيب، فاتجه إلى مصر باحثا عن الهدوء والراحة التي فقدها في المغرب، فبهرته معالمها ومحاسنها، وبحث فيها عن الاستقرار، فصاهر إحدى أسرها الكبيرة، لأن المصاهرة إحدى طرق تقوية العصبية، فاستقر بها مدة لازم فيها التدريس في الجامع الأزهر، بيد أن الأمور رغم ذلك لم تكن بالأمر الهين، فمصر كانت في ذلك الوقت تزخر بعلماء مرموقين وكانت المنافسة العلمية على أشدها، وقد تعرض المقري فيه لعدة امتحانات، فعمد علماؤها إلى مناقشته وسبر معارفه، فوجدوا بحرا لا ساحل له حيث تفوق وأثبت جدارته، وتبوّأ مكانة

مرموقة في مجتمع مصر العلمي (21)، وكـان يمـضي كـثيراً مـن وقته في رواق المغاربة.(22)

غير أنـه كـان مـن سـوء حـظ المقـري إخفاقـه في حياتـه الزوجية مع السيدة الوفائية، فـسارت الأمـور علـى عكـس مـا اشتهى وأراد، فقد كان بيت السادة الوفائية بمـصر مـن البيـوت الكبيرة، وكان الناس يلتمسون من مصاهرتهم جاهـا وشـوكة، لكن الأمور سارت بعكس ما أراد المقري.(23)

تركت رسوم عزي في بلادي وصرت بمصر منسي الرسوم
ورضت النفس بالتجريـد زهدا وقلت لها عن العلياء صومي
مخافة أن أرى بالحرص مـمن يكون زمانـه أحد الخصوم.(24)

أمام هذه الأحداث التي عاشها المقري والتي جعلت حياته مليئة بالأحزان والمشاكل، وفقد الشعور بالاستقرار في القـاهرة، وبدأ البحث عن راحته النفسية، التي كلما وجدها عاد وفقـدها حيث يقول: «...وها أنـا ذا الآن في الـبلاد المـصرية، وفي علـم الغيب تعالى ما لا نعلم، والتسليم لأحكام الأقدار أسلم»(25)، فرأى في دمشق وجهته الجديدة، ووجد فيها حافزاً علـى العلـم والإنتاج، فقد أثار فيه فـضاؤها الثقـافي وتفاعلـها الاجتمـاعي

لواعج النفس، فرأى فيها موطنه تلمسان (26)، وهـذا مـا عـبر عنه بقوله: «لقد تذكرت بـلادي النائيـة بـذلك المـرأى الـشامي الذي يبهر رائيه...»(27)، على أن نفح الطيـب مـا كـان لـه أن يُؤلف لولا سفر المقري إلى الشام وتفاعله بوسطها، هذا التفاعل الذي خلق في نفسه استحضارا لجو الوطن الذي كان قـد فقـده في مصر بعد طلاقه.

لقد بعثت ذكرى الأندلس في المقري من خلال ما سـجله من أخبارها وما أورده من مآثرها وما ذكره مـن رجالهـا روحـا جديدة وعزيمة قوية جعلته يتجاوز واقع غربته وينـسى شـجون أحزانه، بل دفعته إلى التفكير في تغيير أسـلوب عيـشه، وطريقـة حياته، فاستقر على القدوم إلى دمشق، ومغادرة القـاهرة، فعـاد إلى مصر (1037هـ) وانكب على كتابة نفح الطيب (28)، فوجد في لسان الدين بن الخطيب مواساة لمؤساته بعدما كان قد وجـد في القاضي عياض مواسيا له عنـد كتابتـه لأزهـار الريـاض في فاس، فكلاهما عاشا الغربة والحنين إلى الوطن بال عاشا النفـي والاضطهاد بعيدا عنه.

ففي أحد قصائد لسان الدين عن الوطن يبرز مكانة بلـده عنده ومدى تعلقه به قائلاً:

بلادي التي فيها عقـدت تمائمي وجم بها وفري وجل بها شــاني
تحدثني عنها الشمـال فتشـني وقد عرفت مني شمائل نشـــوان
وآمل أن لا أستفيق مـن الكرى إذا الحلم أوطاني بها تراب أوطاني
تلون إخـواني علي وقد جنـت علي خطوب جمـة ذات ألوان
وما كنت أدري قبـل أن يتنكروا بأن خواني كـان مجمع خـوانـي
وكانت وقد حم الفضـاء صنائعي علي بما لا أرتضي شر أعواني(29)

هذه القصيدة التي نقلها لنا المقري والتي لا يمكن أن يحـس بمعانيها سواه، فقد كان يرددها في نفسه، قبل أن يضمن مؤلفاته معانيها المفعمة بالشعور بالغربة والإحساس بالحنين إلى الوطن.

وقد استبدل المقري تلمسان الواقع الذي فقده، بالأندلس الذكرى التي حلم بها، فأخرج لنـا مؤلفـاً يمكـن وصـفه بمدونـة كبرى، بل أن كلا من تلمـسان والأنـدلس يـدلان علـى شـيء مفقود في ذاكرة المقري، فقـد كـان قـد شـرع وهـو في فـاس في تأليف كتاب بعنوان «أنواء نيسان في أنباء تلمسان» ولم يتمه، بل كتب بدلا عنه مؤلفاً آخر عن الأندلس وهـو «نفـح الطيـب في غصن الأندلس الرطيب».

ويمكن القول أن المقري من خلال حديثة عن تلمسان وحزنه لفراقها، ورثائه للأندلس وذكره لمجدها المفقود قد ساهم في طرح فكرة الارتباط بالوطن بشكل جديد، ورغم أن تراث الأدب العربي لا يخلو من إسهامات خاصة بأدب الحنين إلى الوطن، إلا أنه لم يكن له من التأثير والالتزام والعمق ما يماثل إسهام المقري في هذا المجال، ولعل هذا ما يجعل المقري، مجددا فيما يتعلق بالإحساس بالانتماء إلى الوطن، والتأكيد على عاطفة الارتباط به والانتساب إليه، هذا الانتماء وهذا الانتساب اللذين سوف تقوم عليهما في العصور الحديثة فكرة الوطنية ببُعدها السياسي ومفهومها الإيديولوجي(30)، خاصة إذا علمنا أن المرحلة التي جاء فيها المقري وهي بعد نهاية العصر الوسيط بقليل وفي بداية العصر الحديث.

إن النقاد إذا كانوا قد تحدثوا في المرحلة المعاصرة من تاريخ الأدب العربي عن أدب المهجر وما قدمه للأدب العربي من جديد وللثقافة العربية من إبداع إقتبسه من النهضة العلمية والأدبية الغربية ومدارسها المختلفة من رومنسية ثم واقعية وغيرهما، فإن المقري كان في المرحلة التي عاشها رائد تيار هجرة العلماء المغاربة إلى المشرق، فكانت الهجرة التي تلت

سقوط الأندلس وما تبعه من ظروف سياسية صعبة عاشتها منطقة المغرب الإسلامي(31)، سبب ظهور أدب جديد للهجرة، مهد له ابن الخطيب ورفع أركانه المقري؛ ولا يمكن القول أن اختيار المقري لعناوين مرتبطة بالطبيعة كـ: «أزهار الرياض» والغصن الأندلس الرطيب» و»أنواء النيسان» هي مودة ذلك العصر أو أن ضرورة السجع دعت إلى ذلك، بل هي صورة لأدب مهجر تلك المرحلة وما تميز به من رومنسية وارتباط بالطبيعة، مستمدة من أصالة المجتمع العربي الإسلامي.

الهوامش

(1) اختلفت الأقوال في ضبط نطق اسم عائلة المقري حسب ضبط النطق باسم البلدة التي ينتسبون إليها، فابن مرزوق ينطق الاسم ويكتبه بفتح الميم، وسكون القاف أي مَقْري، وقد نستدل على ذلك من الخلال العنوان المسجوع الذي اختاره عنوانا لكتابه عن المقري الجد وسماه: « النور البَدْري في التعريف بالفقيه المَقْري»، أما التسمية التي استعملها معظم المتأخرين فهي المَقَّرة أي بفتح الميم وفتح وتشديد القاف. ابن عبد الكريم محمد، المقري وكتابه نفح الطيب، دار مكتبة الحياة، بيروت (د ت)، ص109، 110.حسن محمد عبد الغني، المقري صاحب نفح الطيب، الدار المصرية للتأليف والترجمة (د.ت). ص20.

(2) المقري، رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، تحقيق: محمد بن معمر، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1425هـ/ 2004م، ص05.

(3) نفسه، ص 05.

(4) محمد عبد الغني حسن، المقري صاحب نفح الطيب، الدار المصرية للتأليف والترجمة. ص15.

(5) المقري شهاب الدين أبو العباس أحمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، 1408هـ/ 1988م. ج1، ص13.

(6) نفسه، ج7، ص135.

(7) نفسه، ج07، ص136.

(8) المقري شهاب الدين أبو العباس أحمد التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق: اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، طبع صندوق إحياء التراث الإسلامي، الرباط، 1978، ج 1. ص03.

(9) المقري، أزهار الرياض، ص04.

(10) نفسه، ص05.

(11) نفسه، ص06.

(12) نفسه، ص07.

(13) نفسه، ص06.

(14) المقري، نفح الطيب، ج7، ص 134.

(15) نفسه، ج 1، ص14.

(16) نفسه، ج 1، ص14.

(17) نفسه، ج 7، ص134.

(18) هذه الرحلة الثانية للمقري إلى فاس بعد أن كان قد زارها سنة 1109هـ في زمن المنصور السعدي والد زيدان.

(19) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص14.

(20) محمد عبد الغني حسن، المقري صاحب نفح الطيب، ص29.

(21) ابن عبد الكريم محمد، المقري وكتابه نفح الطيب، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت). ص194.

(22) وقد عثر في مكتبة برواق المغاربة على مخطوط الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب وعلى هوامشه تعليقات وملاحظات عديدة بخط المقري وتوقيعه. محمد عبد الله عنان، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1390هـ/ 1970م. ص376.

(23) محمد عبد الغني حسن، المقري صاحب نفح الطيب، ص 38.

(24) المقري، نفح الطيب، ج1، ص74.

(25) نفسه، ج7، ص135.

(26) ناصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية: الوطن في ذاكرة المقري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1 1424هـ/ 2003م.ص239.

(27)المقري، نفح الطيب، ج1، ص65.

(28) سعيدوني، الوطن في ذاكرة المقري، ص239.

(29) المقري، نفح الطيب، ج 5، ص35.

(30) سعيدوني، الوطن في ذاكرة المقري، ص240.

(31) نفسه، ص241